المركز الإسلامي الإفريقي في الخرطوم

دراسات إفريقية

مجلة بحوث نصف سنوية

في هذا العدد

* الإسلام والسياسة في السودان
بقلم البروفسير مدثر عبدالرحيم
(الحلقة الأولى)

* التعاون العربي الإفريقى : التجربة والآفاق المستقبلية
الدكتور الفاتح عبدالله عبدالسلام

* إفريقيا بين المفاهيم الحضارية والممارسات العنصرية
الدكتور أحمد ابراهيم دياب

* الإسلام في مملكة غانا
الدكتور أحمد الياس حسين

* مشيخة تكارير القلابات
الدكتور عمر النقر

* الصحافة الإسلامية والعربية فى السنغال
الأستاذ مهدي ساتي

* العلاقات العربية ـ الإفريقية بعض الرؤى الفكرية والنظرية
أحمد محمد كاني

العدد الرابع رجب ١٤٠٩هـ مارس ١٩٨٩م

إفريقيا بين المفاهيم الحضارية والممارسات العنصرية

* دكتور أحمد إبراهيم دياب

مقدمة :-

راجت بعد الانتفاضة (ابريل ١٩٨٥) في السودان ظاهرة اندثرت في غيره من أنحاء القارة منذ أواخر الخمسينات وأوائل الستينات من هذا القرن، أي منذ أكثر من ثلاثين عاماً وهي ظاهرة الدعوة إلى الإفريقية AFRICANISM أو الزنجية NEGRITUDE وهي فكرة تدعو لها بصورة خاصة ماسمي بكتلة الأحزاب الإفريقية (الجنوبية) وحركة التمرد أو ماعرف بجيش تحرير السودان بقيادة جون قرنق ومن يؤيده من أبناء السودان الشمالي ويبدو أنها تجد دعماً من جهات مختلفة على رأسها المؤسسات التنصيرية العاملة في إفريقيا.

نشأت فكرة الزنجية أصلاً في جزر المارتنيك على يد الشاعر ايمي سيزار AIME CESAIRE ومنه أخذها صديقه ليوبولد سنغور وهذا الأخير هو الذي روّج لها في إفريقيا الغربية الفرنسية بتأييد أوربي وبادعاء اشتراكي، هدفه توسيع الشقة بين العرب والأفارقة للمحافظة على المكاسب التي تمت في هذا الصدد خلال الفترة الاستعمارية الأوربية عامة والفرنسية خاصة في منطقة السودان الفرنسي أو ماسموه بإفريقيا جنوب الصحراء، وذلك لخدمة الأهداف الأوربية ضد الحضارة العربية الإسلامية، ولم يتبن هذا المفهوم المرتبط بالغرب وأهدافه الاستعمارية مود يبوكيتا ولا أحمد سيكوتوري ولاكوامي نكروما بل تبنى هؤلاء قضية الوحدة المصيرية والحضارة الإفريقية.

وقد وضحت تبعية دعاة الزنجية للفكر الغربي عندما اعتبر سنغور اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية لفلسفة الزنجية واعتبرها لغة الوصل والتخاطب والثقافة بين الزنوج لأنها بزعمه لغة الحضارة، وقد سار على دربه هذا إخواننا الذين يتخذون اللغة الإنجليزية لغة لدعوتهم الإفريقية أو الزنجية - وليس لغة إفريقية - بينما يتكلمون العربية أحسن منها ولكنهم يحصرون استعمالها في منازلهم وفي التفاهم مع العامة.

والحقيقة أنه لايمكننا تتبع مسار حركة الزنجية إلا بالرجوع إلى بداية العلاقة بين أوربا وإفريقيا ومراحل تطور هذه العلاقة التي اتخذت أشكالاً وأبعاداً كادت أن تقضي تماماً على معالم الشخصية الإفريقية والإفريقيين معاً.

---

* أستاذ التاريخ بجامعة أم درمان الإسلامية وقد قدم أصل هذا البحث في ندوة الحوار العربي الإفريقي بالخرطوم في فبراير ١٩٨٧م.

من المعروف أن سيطرة أوربا على القارة الإفريقية بدأت بحركة الكشوفات الجغرافية التي قامت في أواخر القرن الخامس عشر حينما بدأ كثير من الأوربيين يسافرون إلى خارج قارتهم بحثاً عن الذهب والتجارة ومواقع الاستيطان ونشر المسيحية. وكانت الخطوة الأولى عادة هي وصول التجار والمبشرين ومن ثم يبدأ تحديد منطقة النفوذ للحصول على امتياز لشركة تجارية، أو إعلان عن محمية، ثم تكون السيطرة السياسية والاقتصادية[1].

وهكذا كانت الفترة الممتدة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر - خصوصاً - قد تميزت بقمع وقهر وحشيين للشعوب الإفريقية من طرف الأوربيين الطامعين الذين أرادوا الحصول على الرقيق والذهب واحتلال بعض المواضع،وفي القرن التاسع عشر بدأت شركات الغزو والاحتلال المنظم، وكذلك الصراع والتنافس من أجل تقسيم كل إفريقيا. ولم يأت القرن التاسع عشر على نهايته حتى تم تقسيم إفريقيا جميعها. وبقى الاستعمار الأوربي حتى حصول البلدان الإفريقية على استقلالها في أواخر الستينات من هذا القرن.

هذه الحقب التي دامت قرابة أربعة قرون، مارس الأوربيون خلالها أعمالاً يصعب على العقل المعاصر أن يتصورها وقد ترتبت عليها أيضاً نتائج جدّ قاسية. من ذلك أن الأوربيين لم يقتصروا على استعمار إفريقيا والاستيطان في أجزاء منها، وإنما عملوا على تحويل الإنسان الإفريقي إلى سلعة تباع وتشترى في أسواق اقتصادية رائجة - على حد تعبير أمين أسبر - في مرحلة غابت فيها كل المعايير والقيم[2].

والغريب في الأمر أن هذا العمل الوضيع كان يمارس تحت ستار إدخال الحضارة والمدنية لإفريقيا، والأخذ بأيدي سكانها البدائيين المتخلفين ومساعدتهم في تغيير نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية حتى يسايروا ركب المدنية الحديثة. وقد أدت كل هذه الأعمال إلى تبلور النظريات والأفكار العنصرية التي ظهرت في أوربا في القرن الماضي بصورة واضحة والتي كان لها أثر كبير على الممارسات المذكورة،من ذلك نظريات استمدت من فكر شارل داروين الذي قال في ميدان الأحياء بنظريتي «التطور الطبيعي» «والاختيار الطبيعي» وعليهما بني هربرت سبنسر فكرته القائلة بأن (البقاء للأصلح) في تطور المجتمعات البشرية،ثم فكرة التقدم التي أخذ منها المستعمرون شعار (البقاء للأقوى).

نتج عن الرق وممارسته البشعة من قِبَل الأوربيين أثناء تلك الفترة التي دامت أربعة قرون (من القرن ١٥ إلى القرن ١٩)، هدم مقومات حضارات القارة الإفريقية ومنعها من التطور الطبيعي على أسس إفريقية. فكل الحضارات والثقافات التي نشأت وتفاعلت ونتجت عنها ممالك غانا ومالي وسنغاي والهوسا وبرنو وكانم ودارفور ودار صليح والفونج وتقلي وممالك الطراز الإسلامي على الساحل الشرقي لإفريقيا، انهارت واندثر معظمها من أساسه نتيجة هذه التحولات الجذرية التي نتجت عن تجارة الأوربيين في الرق الإفريقي[3].

وعندما بدأ الاوربيون يتغلغلون داخل غرب القارة في القرن التاسع عشر لم يجدوا

إلا خراباً وفوضى وجموداً، ولذلك وصلوا إلى نتيجة متسقة مع سابق فهمهم ومنطقهم، وهي أن الخراب والفوضى والجمود إنما هي نتاج من طبيعة التاريخ الإفريقي والحياة الإفريقية. ولم يكن أقل من ذلك إمعاناً في التكبر اعتقادهم الشائع بأن إفريقيا لا تاريخ لها ولا ماضى وأن سكان إفريقيا شعوب بلاتاريخ وقد لخص د: كوامي نكروما هذا الحكم على إفريقيا حين قال:-

«إنَّ الأسطورة الأساسية لكل الأساطير التي أحاطت بشعوب إفريقيا هي رفض الاعتراف بماضيها الخاص، ويزعم الأوربيون أنَّ شعوب إفريقيا ظلت خامدة خاضعة للركود، في حين أنَّ شعوب القارات الأخرى تصنع التاريخ. ويزعمون كذلك أنَّ شعوب إفريقيا لم تدخل مسرح التاريخ إلا بفضل التدخل الأوربي، وهكذا فإن تاريخها لايعتبر في أغلب الأحيان إلا امتداداً للتاريخ الأوربي وهذا قول مردود لأنه لايقوم على أساس علمي»[٤].

أما مظاهر حضارة إفريقيا فأمر واقع لاشك ولاجدال فيه، وتكفي الإشارة إلى مصر القديمة التي مازالت تبهر العالم بحضارتها، ولكن كثيراً من الكتاب الغربيين ومن دعاة الزنجية يغفلون عن أن مصر في إفريقيا ومنها، وكذلك الإشارة إلى الإسلام الذي ظل يساهم (وما زال يساهم) في تعميق الشخصية الإفريقية ابتداء من العصور الوسطى، والى الإمبراطوريات الإفريقية الإسلامية التي عرفتها منطقة جنوب الصحراء وساحل شرق افريقيا، تلك الإمبراطوريات التي كانت بعض مدنها من أهم مراكز الإشعاع الثقافي والعلمي في القارة بالإضافة إلى أهميتها التجارية. أما الحقب الاستعمارية التي ادعى الأوربيون أنها فترة إدخال الحضارة والمدنية لإفريقيا، فهي في الواقع مدة قصيرة جداً من تاريخ إفريقيا الطويل، وهي بلا شك من أحلك الأزمنة التي مرت بها شعوب القارة.

الحضارة الفرعونية الإفريقية:-

إنَّ أول ماتتجه اليه أنظارنا حول هذا الموضوع - أي القول بإفريقية حضارة وادي النيل الفرعونية - مصر والسودان - تتجه إلى الأستاذ الكبير الشيخ عنتاديوب SHEIKH ANTA DIOP فقد كان من مساهماته الهامة في التاريخ رد الاعتبار لتاريخ القارة الإفريقية وأكثر من ذلك أنَّ الأبحاث التي قام بها والتي تأكدت صحتها مع مرور الزمن قادته إلى نتيجة موضوعية مفادها أنَّ حضارة وادي النيل القديمة ترجع إلى أصل افريقي[٥].

وقد استطاع ديوب أنَّ يثبت نظريته التي جاء بها عام ١٩٥٦ بشكل لاجدال فيه حيث تأكد لديه أن حضارة وادي النيل الفرعونية، حضارة زنجية. هذا ماأدى بعلماء المصريات سواء منهم الأمريكيون أم السوفيت أم البلجيكيون أم الالمان أم المصريون أنفسهم إلى أن يعترفوا في نهاية الأمر بما توصل إليه ديوب.

وكان من الذين أيدوا ديوب في بداية أمره «جورج غورفيتش» أحد أساتذة جامعة السربون، الذي بعث برسالة إلى المؤتمر الثامن للكتاب والفنانين السود والذي انعقد بروما سنة (١٩٥٩) يقول فيها:-

(لقد قدمت الثقافة الإفريقية للعالم مثلاً عظيماً عن حيويتها ونشاطها وكل المفاهيم الحياتية والدينية والفلسفية خرجت كما أعتقد من هذا المنبع ولم يكن باستطاعة الفراعنة القدماء أن يقيموا حضارتهم لولا الثقافة الإفريقية وهذه الحضارة لم تكن على كل حال إلا أسمى مراحل الحضارة الإفريقية)[٧].

ولعل في هذا رداً على دعاة الزنجية الذين يريدون فصل شمال القارة أو مايسمونه بشمال الصحراء من القارة حتى يعطوا دعوتهم صبغة عنصرية ذات لون واحد مبعدين شعوب الشمال الإفريقي وكل المناطق التي تأثرت بالمد الإسلامي والثقافة العربية وقد ظهر من حديث ديوب وجورج غورفيتش أنَّ العالم الأوربي أصبح بصورة غير مباشرة الوريث الثقافي لإفريقيا باعتبار أن حضارة وادي النيل الفرعونية هي أولى الحضارات التي ظهرت في العالم أي قبل ظهور الحضارتين اليونانية والرومانية اللتين تستمد منهما أوربا أصولها الأخلاقية والفكرية.

الحضارة الإسلامية العربية:-

نشير في بداية الحديث عن هذا الشق من الموضوع إلى أنَّ اللغة العربية هي أقدم لغة حية في القارة الإفريقية المترامية الأطراف. وقد دخلت إلى الأطراف الشرقية من القارة قبل ظهور الإسلام وتركت آثارها في لغات الحبشة والصومال، ثم غمرت أرجاء القارة مع دخول الإسلام والمسلمين إليها[٨].

هذا وقد اعتبر انتشار الإسلام في إفريقيا، أول اتصال حضاري خارجي ينفذ للقارة، مما دعا بعض المؤرخين والمفكرين والكتاب المعاصرين إلى الاعتراف بفضل الحضارة الإسلامية على إفريقيا والأفارقة معاً. فهذا فيليب كورتون المؤرخ المعاصر الذي يقر بأن الحقبة الواقعة بين عام ٧٠٠م و١٥٠٠م تعتبر بحق حقبة إسلامية بالنسبة لإفريقيا[٩].

وهذا سنغور رغم كل مواقفه ضد الثقافة العربية الإسلامية يعترف بأن التأثيرات العربية البربرية (الإسلامية) على الزنوج الإفريقيين تظهر في حياتنا الدينية، ذلك لأن أكثر من ثلث إفريقيا مسلمون، كما تظهر في اللغات الكوشية ومناطق السودان العليا... وكذلك تظهر في عاداتنا وتقاليدنا، وأكثر من ذلك كله وهو الأهم مايظهر في طرائق وأساليب تفكيرنا[١٠].

أما توماس آرنولد فيقول في كتابه الدعوة إلى الإسلام:-

«بلغت اللغة العربية حداً يفوق الوصف، بل إنَّها أصبحت لغة التخاطب بين بعض قبائل القارة السوداء. وهي إلى ذلك لغة الشريعة المكتوبة، وهذا تقدم هائل للحضارة الإفريقية»[11].

ومن الجدير بالذكر أنَّ اتصال العرب المسلمين سواء أكان بغربي القارة أم شرقها، قد بدأ اتصالاً تجارياً، وكما هو معروف وحتى يومنا هذا فإنَّ الاتصال التجاري هو أكبر عامل حضاري، وفي إفريقيا ساعدت تجارة المسلمين مع إفريقيا على تطور الحياة الإفريقية وقيام حضارة إفريقية إسلامية في شرقيّ وغربيّ إفريقيا.

فبعد اتساع نطاق التجارة والاستيطان، بدأ أثر العرب المسلمين في حياة الإفريقيين (الزنوج) يتسع ويتعمق. كان التجار والمهاجرون العرب يحملون رسالة ويتحدثون لغة مرموقة. واتخذت آثارهم هذه سمتها القوية التي بقيتْ إلى اليوم في سَحْنة الكثيرين من الشعوب الإفريقية. وكذلك في تكوينها الجسدي خاصة منها تلك التي تعيش جنوب غرب الصحراء، فالدم الغالب شمال السنغال والنيجر هو الدم الخليط من الزنج والبربر والعرب، والدين الغالب هو الإسلام، واللغة العربية ليست غريبة على الأكثرية»[12].

ومن الفنون التي أدخلها المسلمون إلى إفريقيا، ولم تهدد كيان الفنون الإفريقية بالزوال، بل بالعكس من ذلك عززتها وطبعتها بطابعها المحلي نذكر على الخصوص: العمارة والموسيقى والكتابة التي تجسدت بعد ذلك في اللغات الإفريقية المكتوبة «كالسواحلية، والهوسا، والفلاني، والماندنجو، واليوربا».

وكذلك في الموسيقى الإفريقية ذات السلم الخماسي التي احتفظت بطابعها والطراز المعماري الإفريقي الخاص. غير أنَّ الاستعمار الأوربي لما حاول استئصال كل ماله علاقة بالعرب والمسلمين في إفريقيا عمل على إزاحة بعض الأمور الفنية والحضارية مثل تحويل الأبجدية العربية للغة السواحلية والفلانية والهوسا، إلى الأبجدية اللاتينية، لكن رغم استخدام الحروف اللاتينية في كتابة السواحلية وغيرها، فان هذه اللغات استطاعت تحصين نفسها واحتفظت بمسحتها العربية والإسلامية[13].

وإضافة إلى استخدام الحرف العربي تأثرت هذه اللغات بالنحو والصرف وأوزان الشعر العربي.

من كل هذا يتضح لنا أنه لم يكن هناك على مدى العمق التاريخي فاصل بين أجزاء إفريقيا شمالها وجنوبها وشرقها وغربها. وأنه لم تكن سواء في الماضي أو في الحاضر حواجز بين جماهير القارة بأكملها - بعيداً عن مطامع صفوة المتعلمين على النهج الغربي المسيحي أو الاشتراكي - أو فوارق عنصرية أو لونية أو طبقية. بل عرفت القارة بكل امتداداتها الجغرافية، التمازج والتفاعل الحضاري، مختلفة في ذلك عن بقية القارة. وقد عاشت فيها الثقافات المختلفة وانصهرت مؤثرة ومتأثرة - بفنونها وآدابها وكل جوانب حضارتها، سواء

أكانت الحضارة الفرعونية في وادي النيل من يوغندا إلى الإسكندرية أم حضارة تاسيلي قبلها في قلب الصحراء الكبرى أم حضارة الكنغو وزمبابوي في وسط الغابات الاستوائية أم الحضارة العربية الإسلامية في كل أصقاع القارة، كل هذه وغيرها لم يقم بينها ما عرف أو سمي بصراع الحضارات بل تعايشت في تفاعل سام إلى أن جاء الغزو الأوربي الاستعماري بكل أبعاده السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية والاستيطانية، محاولاً محو أو تفتيت التفاعلات الحضارية التي وجدت على أرض القارة بالقطع والتمزيق. وتعددت اللغات الأوربية حتى بلغت - في قارة كانت متجانسة لغوياً - سبع لغات أوربية مزقت القبيلة الواحدة فيما بينها. وعندما فشلت هذه المحاولة وشعر المستعمر بالتقارب بين الوطنيين الإفريقيين في كل أنحاء القارة في فترة ما بين الحربين قسم القارة إلى إفريقيا الأنجلوفونية (الناطقة بالانجليزية) وإفريقيا الفرانكفونية (الناطقة بالفرنسية) ثم تسربت مع بعض الناطقين بالفرنسية الذين عاشوا في فرنسا، فكرة الزنجية وأخذوا يدعون لها ابتغاء تفتيت القارة، ولكن المثقفين الأفارقة وقفوا لها بالمرصاد.

موقف المثقفين الأفارقة من فكرة الزنجية :-

ابتداء من أواخر الخمسينات وأوائل الستينات من هذا القرن بدأ الجيل الذي كان يدعو للزنجية ومفاهيمها وأفكارها فيما بين ١٩٣٠ - ١٩٦٠ في الأفول باستثناء سنغور الذي بقي وحده يدافع عن فكرة (الزنجية) إلى اليوم - وحل محله جيل جديد حمل أفكاراً تختلف عن أفكار سابقيه، وكانت القضايا الأولى التي شغلت هذا الجيل قبل كل شيء قضايا التنمية الاجتماعية والاقتصادية، وكذلك التطور العلمي والتقني. وحاولوا اتباع منهج يتسم بالواقعية بعيداً عن كل نظرة عرقية عنصرية ضيقة أو أقوال فوقية لاتمت إلى الواقع بصلة. وبعبارة أخرى حاول الجيل الجديد الاهتمام بالمشاكل الراهنة التي تعيشها إفريقيا بدلاً عن الاهتمام بالماضي وبالروح الزنجية.

وقد اكتسبت أفكار هذا الجيل وضوحاً اكثر منذ عام ١٩٦٠ إلى اليوم في كل إفريقيا وشذّ عن ذلك أدعياء (الزنجية) في السودان الذين ما زالوا يتمسكون بأوهام الماضي والحقيقة أن هذه الحركة التجديدية التي قامت ضد العنصرية الزنجية لم تكن أمراً جديداً وإنما هي استمرار لتلك الحركة الفكرية التي كان قد بدأها قبل الاستقلال كل من «عليون ديوب وبكاري طراوري ومحموى ديوب وعبدلاوي والشيخ عنتا ديوب وغيرهم»[١٤].

ومن أوائل الذين قاموا بتوجيه أصابع الاتهام للزنجية (فرانز فانون FRANZ FANON[١٥] الذي رأى أنه على الرغم من فضائل الحركة الزنجية في مجال إنهاء السيطرة الاستعمارية يجب استبدالها بأدب يندرج مباشرة في الكفاح الثوري. وقد انتقد فانون موقفي سنغور ورابيه ننجارا (رئيسي حكومتي السنغال ومدغشقر آنذاك) في عدم تصويتهما لصالح القضية

الجزائرية أثناء مناقشتها في الأمم المتحدة، واعتبر فانون هذا الموقف غير مشرف ويؤسف له. وانتهى إلى القول: (إن مثل هذا الموقف دليل على تفاهة الحركة الزنجية)[١٦].

كما يُعتبَر ازيكيل مفاهليلي (جنوب إفريقيا) من الأوائل الذين قاموا بمهاجمة عقيدة الزنجية مؤيدا رأي فانون في عقم الحركة الزنجية ويرى أن العودة إلى المنابع الأصلية لإفريقيا عمل لاطائل من ورائه لأنها توصد الباب أمام الإسهامات الخارجية بالإضافة إلى أنّ الزنجية تتسم بعدم الفعالية لأنها تلجأ إلى تذكر الماضي بينما كان من واجب الكتاب والساسة الأفارقة الذين يدعون للزنجية والإفريقية جنوب الصحراء التنديد أولاً بالوضع الاستعماري بأشكاله وألوانه كافة[١٧].

إنّ إقامة دعوى ضد الزنجية من طرف كل من فانون ومفهليلي كانت تحتم الوصول إلى هجوم منظم على الزنجية، هذا الهجوم الذي بلغ منتهاه في المهرجان الثقافي الإفريقي الأول الذي أقيم بالجزائر في ١٩٦٩. وكان الموضوع الذي طرح في هذا اللقاء سياسياً أكثر منه ثقافياً فالمؤتمرون في الجزائر قد ظهر لهم أن الزنجية باعتبارها أيديولوجية سياسية غير فعالة وغير ناجحة. وهكذا نجدهم قد تلاقوا في خط واحد مع انتقادات وفود كل من الكنغو برازفيل، وغينيا وداهومي والسودان وغيرهم من السياسيين ورجال الفكر والمثقفين الإفريقيين.

وقبل التعرض إلى أهم الانتقادات التي وجهت إلى الزنجية (الإفريقية) من طرف وفود ومثقفي بلدان إفريقية يجدر بنا أن نتذكر أهم الموضوعات التي دارت حولها مناقشات الملتقى والتي حددت في ثلاث نقاط رئيسية :-

أولاً :- واقع الثقافة الإفريقية.

ثانياً :- دور الثقافة الإفريقية في الكفاح الوطني التحرري وفي تدعيم الوحدة الإفريقية.

ثالثاً :- دور الثقافة الإفريقية في التنمية الاقتصادية والاجتماعية في إفريقيا[١٨].

كان الهجوم الأول الذي انصب على الزنجية من خلال رسالة بعث بها سيكوتوري (رئيس غينيا) وكان أهم ماجاء في تلك الرسالة :-

(وإن كانت الثقافة تتسم بطابع اجتماعي من حيث الأصل والهدف، فإنها أصبحت في بعض الأنظمة احتكاراً لأقلية اجتماعية تستعملها لمخادعة الأغلبية واستغلالها والسيطرة عليها... وانه ليست هناك ثقافة سوداء ولاثقافة بيضاء ولاثقافة صفراء هناك شعوب مختلفة ألوانها وأديانها وقومياتها، تعبر عن أفكارها وإرادتها بصيغ مختلفة وتستعمل لذلك وسائل متنوعة ومختلفة على حسب مستوى نموها الفكري والتقني والأخلاقي...

ويخلص سيكوتوري إلى القول بأنّ الزنجية مفهوم غير صحيح وسلاح لاعقلاني يساعد اللاعقلانية، إنها مفهوم يعتمد على التمييز العنصري، الذي يتحكم في شعوب

إفريقيا وآسيا، والملونين بأمريكا واوربا[١٩].

ومن الوفود الإفريقية الذين نددوا بالزنجية وفد جمهورية الكنغو/برازفيل برئاسة هنري لوبيز HENRI LOPES الذي اعتبر الزنجية مفهوماً تجاوزته الأحداث، كما اعتبر ملتقى الجزائر فرصة لإعادة النظر في قضية الزنجية (الإفريقية)

ولعل أهم ما جاء في خطابه حول هذا الموضوع قوله :-

(إن الخطر الكبير الذي تمثله حركة الزنجية هو أنها تشكل بالنسبة للكتاب السود قوة معارضة لكل نشاط خلاق. . . وعلى ثقافتنا أن تخرج من المتحف وأن تنتعش وتساعد الإنسان الإفريقي (بمفهومه الجغرافي وليس العنصري) على استغلال وفرض سيطرته على ما فوق أرضه وتحتها، وكذلك أنهاره وغاباته ومحيطاته وبحيراته**وأجواؤه**[٢٠].)

ثم يوجه نداء إلى الفنانين الأفارقة في كل القارة الإفريقية يهيب بهم أن يضعوا حداً للخلافات المصطنعة التي تبدو وكأنها تميزهم، والتي هي في الواقع تجعلهم متعارضين مثل الأفكار الثقافية الزائفة التي ألبست أسماء مغلوطة كالزنجية والعروبية والبانتوية أو (التعصب للبانتو) هذه التي تؤدي في النهاية إلى عدم التفاهم بين الناس[٢١].

كما ندد مايسور ابتومو من غينيا بالزنجية ومن يدعون إليها واصفاً إياهم بأنهم يحبون الذل والهوان وينوحون بدون فائدة. والزنجية في الحقيقة كما عبر عنها ابتومو ما هي إلا تخدير مخادع للزنوج الذين ظلوا زمناً طويلاً يجلدون بقساوة، الأمر الذي جعلهم يفقدون وعيهم ليصبحوا عاطفة محضة[٢٢].

أما ستاتيسلاس ادوتيفي S. SPIRO ADOTEVI من داهومي فقد أدان العنصرية الزنجية والدعوة لها إلا أنه اعترف ببعض محاسنها. ومن تعرضه للتعريف بالزنجية ومفهومها أثبت أنها دعوة كيدية لإفريقيا وللإفريقيين ودعوة استعمارية بعيدة المدى فقد قال :-

(الزنجية التي يريدوننا أن نؤمن بها، هي زنجية تجعل منا شخصاً بسيطاً في حياته ليساير الاستعمار وزعماء الدعوة. . . والزنجية في وضعها الراهن تقوم لأغراض لا يصرح بها دعاتها (وهو مايحدث الآن في السودان) بتركيز دعائم التقاليد القبلية البالية في إفريقيا التي يدعى دعاة الزنجية (أو الإفريقية) أنهم يستوحون آثارهم الأدبية منها[٢٣].)

وحاول ادوتيفي أن يبين بشكل واضح غرض الزنحية حينما قال :-

إنما العمل على إنسان الحاضر، هو الهدف من التغني بالماضي وإثارة المشاعر المرضية، وإن زنجية الخطب أي زنجية اليوم تجعل منا زنوجاً طيعين في عهد التقسيمات الكبرى التي نمر بها. إنَّ دعاة الزنجية لايكتفون بالإشارة إلى الفروق الكائنة بين الزنوج وبين الأوربيين،وهي فروق معقولة، بل يذهبون إلى أبعد من ذلك لأنهم فى الواقع يريدون أن يقروا في عقول الناس بأن القارة السوداء إذا ما قورنت بأوربا العقلانية والصناعية على وجه الخصوص، فإنه لايمكن أن تلحق بها. .[٢٤].

وقد أعجبتني آراء وطروحات ادوتيفي خاصة عندما تطرق إلى مايسمى بالاشتراكية الإفريقية ووصفها بأنها وهم خيالي فأجده يقول :-

الاشتراكية الإفريقية التي تأسست انطلاقاً من الزنجية تجعل - والحالة هذه - إفريقيا في الدرك الأسفل من الانحطاط عندما نزعم أن الاشتراكية كانت موجودة من قبلُ في الجماعات التقليدية وعلينا أن نكتفي باتباع التقاليد الإفريقية لنصل إلى الاشتراكية الأصلية، ونتيجة كل هذه المهزلة ما نراه اليوم من الأمور السيئة والمشينة منها :-

- الضجيج الذي نسمعه لدى بعض الدول الإفريقية وهي تدور في حلقة مفرغة.
- تساقط الحكومات.
- عدم الانسجام الإداري وذلك في الشئون الاقتصادية
- بطالة وعقم.
- انعدام الأداء في الأجهزة.
- موظفون ينقصهم الوعي.
- حتمية الانقلابات العسكرية.

ودعا ادوتيفي إلى نبذ فكرة الزنجية والعمل على حل المشاكل العِرْقية وتنشيط الثقافة التقنية وتحديد الدور الذي ينبغي أن تهتم به كل طبقة من طبقات المجتمع والقضاء على النظم القديمة وغيرها من الأسئلة التي تعتبر كلها مشاكل يومية بالنسبة للمثقف والعامل والتاجر والفلاح[٢٦] وعن محاسن الزنجية أوضح :-

لقد أدت الزنجية مع ذلك رسالة وهي أنها من وراء عجزها وسلبيتها ومن وراء متاهات تقريرها كانت رفضاً للاستذلال والمهانة للأوربي المستعمر. . . ويختم قوله في أنه لم يكن هناك مكان للأدب في إفريقيا خارج المعركة الثورية. وعليه فقد ماتت الزنجية[٢٧].

وأوضح أبو بكر عثمان (السودان) أن الزنجية وإنْ قُبِلت كفلسفة لمعيار نقدي لتقسيم العمل الفني فإنه لا يمكن قبولها كفلسفة لتغيير التاريخ لأنها بالضرورة ليست حقيقة موضوعية. وإنما هي رد فعل ذاتي . . . وإن الثقافة ككائن عضوي وكقوة دافعة للنمو الحضاري لايمكن أن تفسر إلا بالظروف المادية والمعنوية التي تحيط بالإنسان وتتفاعل معه لا بالعنصرية ولون البشرة فالزنجية ليست صادرة عن وعي لسواد البشرة بقدر ما هي صادرة عن وعي لعدم بياض البشرة. وهي مع إخلاص دعاتها لها - بوعي أو بغير وعي - تخدم في النهاية مصالح الاستعمار. الذي ظل يسعى خلال قرون من الزمان من أجل الانفصام الكامل بين شعوب القارة المختلفة على أساس العنصر والعرق[٢٨].

وقد عالج بروفسير جنويف كي زيربو J. KI - ZERBO رئيس اتحاد المؤرخين الأفارقة مفهوم الزنجية من الناحية التاريخية والفلسفية حيث قال :-

إن العالم الأسود يبدي خصائص أصيلة جداً ناشئة عن تاريخه ومحيطه، وأنه «أي العالم الأسود» ينبع من الواقع أكثر من القياس والأخلاق والميتافيزيقيا. إن كل إنسان يمثل نقطة تقاطع خطين : سلالته النسلية وبيئته الطبيعية والاجتماعية ثم يستدل كي زيربو بالمثل العربي «إن الرجل ابن زمانه أكثر مما هو ابن أبيه» مؤكداً أن هذا المثل لا يزال حياً في عصرنا الذي بدأت عجلة التاريخ فيه تدور بسرعة[٢٩]. ويلح كي زيربو على ضرورة الإسراع بالاستقلال الاقتصادي كما تطرق إلى بعض العوامل الخطيرة التي تتمثل في القبلية والوطنية الضيقة التي تعتبر حسب رأيه إحدى عوامل الانقسام والتجزئة، كما ألحّ على تحديد الثقافة الإفريقية حسب معطيات العصر ذلك أنه لاحياة لإفريقيا بدون التقنيات والعلوم[٣٠]:

وبعد ملتقى الجزائر ظهرت عدة كتب حاول فيها بعض الأساتذة الأفارقة في السنوات الأولى من السبعينات مناقشة وتحليل مفهوم الزنجية بشكل أكثر توسعاً عما طرح في الجزائر عام ١٩٦٩ ومن هؤلاء كي زيربو، والكاميروني مرسيان تووا TOWA والزائيري فالنتين موامبي V. MUDIMBE والداهومي ادوتيفي وقد أوضح ادوتيفي - الذي تعرضنا إلى بعض أفكاره في الملتقى في كتابه الصادر سنة ١٩٧٢ سخطاً شديداً على الزنجية وانتقدها نقداً لاذعاً هي وجميع أتباعها والمتعصبين لها، والذين يحاولون الانتفاع بها واستغلالها. وقد وضع على رأس هؤلاء جميعا سنغور باعتباره المسئول الأول عن المؤامرات الناجمة عن الزنجية، التي تنافي العقل والصواب. ومن الفقرات التي حواها الكتاب وجاءت كتنديد صارخ للسياسة التي انتهجها سنغور:-

« إن الزنجية ماهي إلا ايديولوجية جوفاء وغامضة وغير فعالة. وما دام الشاعر الزنجى لا يندمج في كفاحه بشعبه وما دام يرفض الخروج عن طاعة أسياده فإنه سيصبح بعيداً عن الزنجية[٣١]. »

وأوضح ادوتيفي أن سنغور وهو فيلسوف ورائد فكرة الزنجية والداعي لها ومؤسسها في دولته التي كان اقتصادها ونظامها السياسي تسيطر عليه الإمبريالية وأنه ارتبط جدليا بالبلاد الرأسمالية عبر علاقات استغلالية واستعمارية والتي هي من صميم الامبريالية ويخلص إلى القول «إذن سنغور هو جزء لايتجزأ من النظام الرأسمالي الامبريالي وكذلك كل رؤساء الدول الإفريقية الذين يدعون بأنهم اشتراكيون إفريقيون فالإيمان بالاشتراكية والزنجية وحده لايكفي، والشيء الوحيد الذي يجب فعله هو التفكير في مواجهة المستقبل[٣٢].

أما مرسيان تووا M.TOWA فدافع هو الآخر عن موضوع مماثل في كتابه بعنوان «دراسة حول الاشكالية الفلسفية في إفريقيا الراهنة». ويعود سبب رفض تووا للزنجية إلى أنها تهدف إلى مذهبية جديدة وتخفي وراءها عبادة الفارق والاختلاف والأصالة كما اتهم تووا الزنجية بأنها تستعمل حجة من أجل إقامة أنظمة في مناطق عديدة من إفريقيا حيث يتمتع

فيها شخص واحد فقط بالحرية ويقرر حسب رغبته ومزاجه الأنظمة التي يجب أن تسود فيها الحرية دون أن يكون هنال متنفس للمعارضة والخروج عن الطاعة[٣٣] ولعل في زعامة جون قرنق خير دليل على هذا الرأي والذي ظهر في دكتاتوريته وفرديته.

أخيراً نشير إلى شخصية هامة لعبت دوراً خطيراً في مناهضة الزنجية هذه الشخصية هي وول سوينكا WOLE SOYINKA الذي ولد عام ١٩٣٤ ببلاد اليوربا بنيجيريا كان سوينكا أحد الأصوات الأنجلوفونية المعادية للفرانكوفونية ومعلوم أن الأفريقيين الناطقين بالإنجليزية قد رفضوا فكرة الزنجية وفضلوا استعمال عبارة الشخصية الإفريقية AFRICAN PERSONALITY هذه العبارة التي تعتبر في رأيهم أقل عنصرية من الزنجية بالإضافة إلى أن الإفريقيين كانوا يحبذون الأعمال الفعلية وليست الأقوال التي لا تجدي نفعاً. ومن هنا نبعت فكرة سوينكا المشهورة والتي سدد من خلالها ضربة عنيفة للزنجية وأعلن بطلانها في عبارته التهكمية الموجهة الى سنغور «النمر لايتكلم عن نمورته»[٣٤].

THE TIGER DOES NOT SPEAK OF HIS TIGERTUDE

ويصف آرنولد توينبي حركة الزنجية بقوله إنها حركة يتناسق مظهراها الرئيسيان بشكل عجيب فهي في طورها السلبي كانت تنحو لإزالة سيطرة الدول الغربية وفي طورها الإيجابي كانت حافزاً لاعتناق أساليب الغرب العسكرية وأنظمته السياسية والاقتصادية وثقافته الروحية.

خاتمة :-

إنني أتفق مع د. عزالدين موسى في أن التفريق بين العرب والأفارقة أو الزنوج لم يقم على أسس موضوعية علمية لا من حيث العنصر ولا اللغة ولا الثقافة. ولهذا فإن الاستمرار فيه سيضر بالعلاقات ضرراً بليغاً بإدخال حواجز نفسية تخدم الخيالات المريضة والأهداف الخبيثة. وهكذا يتبين خطأ من يذهبون إلى أن إفريقيا شمال الصحراء عربية مسلمة وجنوبها (إفريقي) أو (زنجي) أسود عامته وثنية وصفوته مسيحية متعلمة تعليماً كنسياً غربياً، في الغالب الأعم، ولعل ضعف الأسس التي قام عليها التفريق بين العرب والأفارقة، (إفريقيا شمال الصحراء وجنوبها) من الأساليب التي أدت إلى انحسار موجة فلسفة الزنجية التي اكتسبت أهمية خاصة مع ليوبولد سنغور[٣٥]، الذي قال وهو يتسلم الدكتوراه الفخرية من جامعة السربون بحضور الرئيس الفرنسي السابق جيسكارديستان :-

«شكراً للثقافة الأوربية التي عرفتنا بتوجيهاتها القيمة كيف نتميز ونرتقي بحضارتنا الزنجية عن أولئك الذين احتوونا».

وقد تحول الناس عن فلسفة الزنجية في بحثهم عن الذات إلى حركة جغرافية سياسية شاملة موحدة للقارة في شكل البحث عن الشخصية الإفريقية -AFRICAN PERSON

ALITY مع نيكروما وتطورها إلى حركة الإفريقية AFRICANISM ثم الجامعة الإفريقية -PAN-AF RICANISM مع نيكروما ومود يبوكيتا، ثم إلى منظمة الوحدة الإفريقية O.A.U. في عام ١٩٦٣ ويرى عزالدين موسى أنّ مما ساعد في هذا التطور مايلي :-

أولاً :- أنّ العروبة في مفاهيمها قد بعدت عن العنصرية وأصبحت أسسها ثقافية لغوية تضم أعراقاً شتى بين الأبيض والأسود وما بينهما من ألوان، واكتسبت مضامين اجتماعية وتحررية. ومما يدل على ضعف التفريق بين العرب والأفارقة على أساس لغوي أن تجد لغة المحادثة والمواصلة بين مختلف المجموعات العرقية المتعددة في قطر إفريقي غير عربي - حسب تقسيم دعاة الزنجية - مثل تشاد هي اللغة العربية العامية [٣٦].

ثانياً :- أنّ فكرة الزنجية والإفريقية إنما كانت رد فعل ضد الاستعمار الغربي وتجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي، أكثر من كونها رد فعل لانتشار الإسلام والثقافة العربية وتجارة الرقيق عبر الصحراء كما يزعم المدعون وهذا ما دعا سيكوتوري للقول بأن الزنجية أصبحت دعوة تقسيم وتفرقة تخدم مصالح الإمبريالية وتضعف الجبهة المعادية للاستعمار[٣٧] فممن يريد جون قرنق وأتباعه أن يحرروا السودان ولمن ؟.

ثالثاً :- أنّ النظريات العنصرية التي راجت في أوربا في القرن التاسع عشر قد فقدت مقوماتها العلمية البيولوجية منذ زمن طويل، وفقدت سلطانها السياسي مع انهيار النظامين العنصريين النازي والفاشيستى. وفي فترة مابين الحربين ١٩٢٠ - ١٩٣٩م ظهرت في إفريقيا في شكل الدعوة إلى الزنجية والتي انتهت في أول الستينات ولم يعد لها وجود، إلا فى كيانات وتجمعات مريضة ذات قوة عسكرية ظاهرية مثل الكيانين العنصريين في إسرائيل وجنوب إفريقيا، وفي الحركة الإفريقية العنصرية التي ظهرت في السودان المتمثلة فيما يسمى بجيش تحرير السودان وتوابعه، واستمرار هذه الأفكار العنصرية مرهون بالدعم الخارجي من قوى الإمبريالية العالمية بوسائل متعددة ومختلفة[٣٨].

رابعاً :- لقد قدم الإسلام لإفريقيا نماذج رفيعة من الإخاء الدولي فالأفكار الصوفية التي انتشرت ولاتزال تنتشر في القارة تمكن أتباعها من الانتماء لتجمعات روحية تقوم على الولاء للمجموعة وتبعث روح التآخي الصادق في سمو ارتفع على الجذور الطبقية والقبلية العنصرية[٣٩] مثل الطريقة التجانية والقادرية والسمانية والختمية والمريدية.

ولعل السودان والسنغال خير مثالين لاخوية الطرق الصوفية، ففي السنغال التف معظم الشعب السنغالي حول التجانية والمريدية وفي السودان نجد أيضاً التفافاً حول طريقتين أو طائفتين سودانيتين نبعتا من أرض سودانية وفيهما أصالة القومية السودانية وأبعاد شخصيتنا القومية وهما الختمية والأنصار.

خامساً :- أنّ الزنجية أو الإفريقية في المجتمعات الإفريقية عامة وفي المجتمع السوداني المتعدد الاجناس والأديان واللهجات وألوان البشرة ما هي إلا موضوع من موضوعات الشرثرة الثقافية والاستقطاب السياسي الرخيص وبدعة تصيب بأسوأ منها - كما قال

مفهليلي :- فالداعون لها في السودان، إخواننا الناطقون بالانجليزية، يحتاجون إلى برنامج دراسي دسم في الشئون الإفريقية ناهيك عن الشئون السودانية لأنهم لا يعرفون القوى المؤثرة على الدول الإفريقية جنوب خط ٣٠ شمالاً ولا مقومات القومية ولا أبعاد الشخصية السودانية .

الهوامش :-

١/ أحمد إبراهيم دياب : لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث ط ١ ، الرياض ١٩٨١ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

٢/ أمين أسير : إفريقيا والعرب ط ١ ، بيروت ، س ٤١ -٤٢ .

٣/ جون جهانهاينز : الإنسان ، عرض للثقافة الإفريقية الحديثة - ترجمة عبد الرحمن صالح - الدار القومية للطباعة والنشر (بدون تاريخ) ص ٢٠١ - ٢٠٢ القاهرة

٤/ كوامي نيكروما : الوحدانية - ترجمة كريم قرقول - دار الثقافة بيروت ١٩٦٧ ص ١٢١

٥/ مترجم من 5/ CHEIKH Anta Diop; Afrique Cosmique Algerie Actualite, No. 395, 16 Annee semaine due 09 au is Dec. 1982 pp. 18

٦/ مترجم من 6/ Kesteloot, Lilyan : Anthlogie Negro Africaine 3ed., Marab-out Vervieres pp. 427

٧/ ايف ديسار : مصر إفريقيا . . ترجمة غياث حجار، مطابع دار الصحافة بيروت ١٩٦٢ ص ٢٨ .

٨/ محمد عبد العزيز إسحق : نهضة إفريقيا - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ ، ص ١٤٧ .

٩/ أبو القاسم سعد الله : النيقرويد أو الشخصية الافريقية كتاب منطلقات فكرية الدار العربية للكتاب تونس ١٩٧٦ ، ص ١٧٨

١٠/ مترجم من :- 10/ Senghor, L, S: les Fondoments de l Africanite ou Negritude et Arabite, Presence Africaine, 1967, pp. 102 - 103

١١/ دياب ج ص ٧٩

١٢/ بازل ديفدسن : إفريقيا تحت أضواء جديدة ترجمة جمال محمد أحمد دار الثقافة بيروت، ص ٢٠١

١٣/ محمد عبد الغني سعودي : السواحلية لغة إفريقية عربية، مجلة العربي عدد يونيو ١٩٨٢ الكويت ص ١٤٩

١٥/ فرانز فانون مارتنيكي الاصل عاش بين ١٩٢٥ - ١٩٦١ ، شارك في الثورة الجزائرية

وقد اعتبره الكثيرون من قلائل المفكرين في العالم الذين شغلوا الناس نظراً لقضايا العصر التي أخذت باهتمامه خصوصاً القضايا الإفريقية وقد استعمل فكره ليحللها أحسن تحليل وأعمقه انظر : محمد قدوري «فرانز فانون والزنوجة» مجلة الثقافة : الجزائر عدد ٧١ اكتوبر ١٩٨٢.

١٦/ محمد قدوري : المرجع السابق

17/ Claude Wautier K. Afrique des Africains 2ed Seuil, 1973, ١٧/ مترجم 188

١٨/ الثقافة الإفريقية ـ ملتقى الجزائر ١٩٦٩ ـ الجزائر ص ٢١٣

١٩/ رسالة أحمد سيكوتوري ـ جمهورية غينيا ـ المرجع السابق ص ٣٦

٢٠/ خطاب الوفد جمهورية الكنغو ـ برازفيل ـ المرجع السابق

٢١/ المرجع السابق نفس الخطاب ص ٩٣

٢٢/ خطاب غينيا ـ المرجع السابق ـ ١١٥

٢٣/ خطاب وفد جمهورية داهومي ـ المرجع السابق ص ٩٩

٢٤/ المرجع السابق ص ٩٩

٢٥/ وهو ماحدث فعلاً لكل الدول الإفريقية التي طبقت ما سمي بالاشتراكية الإفريقية مثل تنزانيا وغينيا وغانا وما يحدث حالياً في أثيوبيا من مجاعات وفقر مدقع ومعاناة نتيجة الاشتراكية الإفريقية.

٢٦/ خطاب وفد داهومي ـ المرجع السابق ص ١٠٠

٢٧/ المرجع السابق ص ١٠٢

٢٨/ خطاب وفد السودان ـ المرجع السابق ص ١٨٢

٢٩/ جوزيف كي زيربو ـ مواقف واقتراحات لثقافة إفريقية حديثة / المرجع السابق ص ٤٠٩

٣٠/ المرجع السابق ص ٤١٠

31/ Adotevi , s. s.: Negritude et Negrologuss - Paris, 1972 - P . 153

32/ Ibid, P . 153

33/ La Grande Encyelopedie, Negritude Volume 14, Laibrairie As Larousse, Paris 1975

34/ Kesteloot, op . cit. pp 258 - 259

٣٥/ مركز دراسات الوحدة العربية ومنتدى الفكر العربي : العرب وإفريقيا ـ بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي أقيمت بعمان الأردن في ابريل ١٩٨٣/ ط ١ بيروت ١٩٨٤، ص ٧٢

٣٦/ المرجع السابق ص ٧٣
٣٧/ المرجع السابق ص ٧٣
٣٨/ المرجع السابق ص ٦٨
٣٩/ المرجع السابق ٩١

مراجع عامة :-

١/ علي شلش : مختارات من الأدب الإفريقي - دار الفنون الثقافية بغداد ١٩٨٦
٢/ و . هـ - هويتيلي : مختارات من النثر الإفريقي ترجمة رمزي يس ، الهيئة المصرية للتأليف - القاهرة ١٩٧١
3/ Fage, J. D:- A History of West Africa - Cambridge 1969
4/ Colin Legum :- Pan - Africanism